الحديث السادس عشر

عن أبى هريرة ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ أن رجلا قال للنبىّ صلى اللّه عليه وآله وسلم: أوصنى ، قال : « **لاَ تَغْضَبْ** » فردد مرارا قال : « **لاَ تَغْضَبْ** » رواه البخارى.

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه البخارى من طريق أبى الحصين الأسدى عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى اللّه عنه ولم يخرجه مسلم ؛ لأن الأعمش رواه عن أبى صالح . واختلف عليه فى إسناده فقيل عنه : عن أبى صالح عن أبى هريرة كقول أبى حصين ، وقيل عنه : عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى ، وعند يحيى بن معين أن هذا هو الصحيح ، وقيل عنه : عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سعيد ، وقيل عنه : عن أبى صالح عن أبى هريرة أو جابر وقيل عنه . عن أبى صالح عن رجل من الصحابة غير مسمّى .

سبب ورود الحديث :

وقع هذا الحديث النبوىّ الشريف جوابا شافيا عن سؤال أحد الصحابة ــ رضوان اللّه عليهم ــ والمرجح هو أبو الدرداء ، حيث طلب من النبى ﷺ وصية مختصرة جامعة لخصال الخير ليحفظها خشية ألا يحفظها لكثرتها ، خرج الترمذى هذا الحديث ــ فى رواية له ــ من طريق أبى حصين أيضا ولفظه :جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : يا رسول اللّه علّمنى شيئا ولا تكثر علىّ لعلى أعيه، قال :« لا تغضب » ، فردد ذلك مرارا كل ذلك يقول : « لا تغضب » ، وفى رواية أخرى لغير الترمذى قال : قلت : يا رسول اللّه ، دلّنى على عمل يدخلنى الجنة ولا تكثر علىّ ، قال : « لا تغضب » .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

إن بعض الناس حينما يستبد به الغضب يفقده رشده وصوابه ، وربما لا يدرى

لا تغضب .الغضب : هو فوران دم القلب لإرادة الانتقام .

فردد مرارًا: أى ردد الرجل السؤال ثلاث مرات، وكأنه لم يقتنع بهذه الوصية الموجزة لفظًا، العظيمة نفعًا.

ما يفعل أو يقول ويذهب البعض ـ والعياذ باللّه ـ إلى سبّ الدين والنيل من قداسته ظنا منه أنه ينفس من غيظه أو يظهر بمظهر الشجاع الذى لا يأبه بشىء . وهو فى الحقيقة إنما يظهربمظهر الطائش الأحمق فربّما تفوّه بـ :

أ ـ سب النبى الكريم أو أى نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ب ـ سب الدين والطعن فى الكتاب أو السنة النبوية العطرة .

جـ ـ سب الذات الإلهية .

وهو بذلك قد ارتد ـ والعياذ باللّه ـ وخرج من الملة الإسلامية، ويترتب على هذا الفعل الشنيع أحكام عدّه ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

وعن ابن عبّاس رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « من بدل دينه فاقتلوه»(١) .

الفقهية :

غالبا ما تصدر على الغضبان عبارات لا يقدر عواقبها ولايحسب لها أى حساب ثم يعود إلى صوابه فيجد نفسه أنه قد هدم مابناه فى سنين .

أولا : الردة :

أ ـ **العلاقة الزوجية** : إذا ارتد المسلم انفصم رباط الزوجية الذى يجمعه بشريكه سواء كان المرتد زوجا أم زوجة ، ويفصل بينهما ولا يحل تزويج المرتد من امرأة مسلمة.

ب ـ **الميراث** : لا يرث المرتد من قريبه المتوفّى ، ولا يورث هو الآخر أيضا بل ماله لبيت المال الإسلامى .

جـ ـ **فقد أهلية التولّى على الغير** : فلا يتولّى المرتد عقد الزواج لبناته أو لمن هن تحت ولايته قبل الارتداد ، وإن باشر عقدا من عقودهن يعد باطلا، هذا إن بقى أبناؤه على الإسلام .

د ـ **الدفن**: المرتد لا يغسل ولا يكفّن ولا يصلّى عليه ولا يدفن فى مقبرة المسلمين.

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ثانيا : الطلاق :

يلزم عند المالكية طلاق الغضبان ولو اشتد غضبه ، وأما حديث عائشة ــ رضى الله عنها ــ : سمعت النبى ﷺ يقول : « لا طلاق ولا عتاق فى إغلاق » فقد فسره الإمام أحمد بالغضب .

وفسره أبو عبيد وغيره بأنه الإكراه ، وفسره غيرهما بالجنون .

وقيل : هو نهى عن إيقاع الطلقات الثلاث دفعة واحدة فيغْلق عليه الطلاق حتى لا يبقى منه شىء كغلق الرهن ، حكاه أبو عبيد الهروى (١) .

القضائية :

يتطلب القضاء إمعان النظر ودراسة القضية من كل جوانبها بحكمة وتعقّل ، ولا تنطبق تلك المواصفات على الغاضب ؛ لذا ورد النهى عن الحكم بين المتخاصمين فى حال الغضب ، عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يقضيّن حاكم بين اثنين وهو غضبان » (٢) .

النفسية :

أ ــ الغضب غريزة جبل عليها الإنسان فليس فى مقدوره دفعها ، والشارع الحكيم لا يكلف نفسا إلا وسعها .

فهل النهى هنا عن الغضب ؟ أو عن أسبابه ؟ أو العمل بمقتضاه ؟

ولكننا بالنظر إلى الشريعة الإسلامية السّمحة نجدها لا تحضر الغرائز ، ولا تعمل على كبتها وتجاهلها ، بل تسعى دوما إلى تهذيبها وتصريفها فى مصارفها المعقولة ، فهذه غريزة الجنس مثلا فى الإنسان ، قد نظمها الإسلام وبين مصارفها ، والغضب هو الآخر فيه المحمود أيضا إن كان لله حينما تنتهك حدود الله ؛ قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ** ﴾ [الأعراف : ١٥٤] ، ومن قبيله غضب سيد الوجود عليه الصلاة والسلام . سئلت السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ عن خلقه ، فقالت : كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه .

فقد دخل بيت عائشة ــ رضى الله عنها ــ فرأى سترا فيه تصاوير فتلوّن وجهه وهتكه ، وقال : « إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور » .

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية ٥ / ٢١٥ .

(٢) جاء ذلك فى الصحيحين .

وكان من دعائه ﷺ : « أسألك كلمة الحقّ فى الغضب والرضا » .

ومما يدل على أن المنهى عنه أثر الغضب نفسه ، موقف رسول اللّه حينما بلغه ابن مسعود ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ قول القائل : هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه شقّ عليه ﷺ وتغيّر وجهه وغضب ، ولم يزد على أن قال : « لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر».

وخرج الطبرانى من حديث أنس مرفوعا : « ثلاث من أخلاق الإيمان : من إذا غضب لم يدخله غضبه فى باطل ، ومن إذا رضى لم يخرجه رضاه من حق ، ومن إذا قدر لم يتعاط ما ليس له » .

ب ــ كما أن التحكّم فى النفس وترويضها حال فورانها من أجل المهام ؛ لذا اعتبر الرسول الكريم صلوات اللّه وسلامه عليه ، المالك لنفسه عند الغضب من أشدّ الأبطال شجاعة ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » (١) ، وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « ما تعدّون الصرعة فيكم ؟ » قلنا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : « ليس ذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » .

الطبية :

الغضب عملية فسيولوجية أيضا لها أبعادها الصحية ، حيث تتشنج الأعصاب ويتوتر الجهاز العصبى والدورة الدموية ، فتزيد دقات القلب ، ويرتفع ضغط الدم ، ويصبح الغاضب معرضا لكثير من الأخطار المهلكة .. كالسكتة القلبية .. وانفجار الشعيرات الدموية ... ومن ثم الشلل الكلى أو الجزئى ــ والعياذ باللّه ــ ناهيك عن الكوارث الاجتماعية المنجرة عنه ... كالانتحار .. والقتل .. والكحول ... لذا نصح النبى ﷺ سائله وسائر المؤمنين بنصائح تهدئ النفس ، وتدفع عنها أسباب الغضب ، وتخفف وطأه ، وهذه النصائح :

أولا :الاستعاذة باللّه من الشيطان الرجيم ، ففى الصحيحين عن سليمان بن صرد قال : استبّ رجلان عند النبىّ ﷺ ونحن عنده جلوس ، وأحدهما يسبّ صاحبه مغضبا قد احمرّ وجهه ، فقال النبى ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم » فقالوا للرّجل :ألا تسمع ما يقول النبى ﷺ ؟ قال : إنى لست بمجنون .

---

(١)رواه البخارى ومسلم .

ثانيا : عليه بالاغتسال سراعا ، روى أبو نعيم بإسناده عن أبى مسلم الخولانى أنه كلّم معاوية بشىء وهو على المنبر فغضب ثم نزل فاغتسل ، ثم عاد إلى المنبر ، وقال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن الغضب من الشيطان ، والشيطان من النار ، والماء يطفئ النار فإذا غضب أحدكم فليغتسل » .

ثالثا : ثم ليجلس إن كان قائما وليضطجع إن كان جالسا ، عن أبى سعيد الخدرى أن النبىّ ﷺ قال فى خطبته : « ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أفما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمن أحسّ من ذلك بشىء فليلزق بالأرض »[1] .

وخرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبى ذرّ أن النبى ﷺ قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجْلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » .

رابعا : وعليه أن يتجنّب الكلام فقد يصدر عنه حال غضبه ما يندم عنه . عن ابن عباس رضى اللّه عنهما عن النبى ﷺ قال : « إذا غضب أحدكم فليسكت » قالها ثلاثا[2] .

خامسا : عليه أن يتدبّر فى فضل كظم الغيظ ، وأن يتذكّر دَوْما قدوته الكبرى ــ سيد الوجود ــ عليه الصلاة والسلام عن معاذ بن أنس الجهنى عن النبى ﷺ قال : «من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه ، دعَاه اللّه يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتّى يخيّره فى أى الحور شاء »[3] .

وجاء أيضا عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ما من جرعة أحبّ إلى اللّه من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظم عبد للّه إلا ملأ اللّه جوفه إيمانا » .

ولقد جاء فى وصف الذين أعدت لهم مغفرة اللّه وجنانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فقه الدعوة

١ ــ الداعية المسلم المفترض فيه أن يكون حكيما بنفسيات المجتمع الذى هو فيه ، عارفا بأدوائه ؛ لأن تشخيص الداء نصف العلاج ، وأنت عليم بنصائح النبى ﷺ المختلفة رغم اتحاد السؤال فى الغالب : أوصنى يا رسول اللّه ، فهذا يوصيه بالتقوى ، وذلك بالاستقامة ، وثالث بطاعة أبوية . . وهلم جرا ، فهذا التنوع فى الإجابة يوحى

(١) أخرجه الإمامان أحمد والترمذى .
(٢) أخرجه الإمام أحمد .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه .

باختلاف حالات السائلين . . ومعرفة هذه الحالات شىء ضرورى للداعى إلى الله ؛ ليتمكّن من وصف الدواء المناسب .

٢ ــ أثر الغضب السيئ لا يعود لشخص الداعية نفسه فحسب ، بل وتترتب عليه آثار وخيمة على الدعوة نفسها ، حيث تصدر عنه فتاوى وأحكام لا تستند لدليل شرعى، بل تقوم على محاولات التبرير والدفاع مثلا . . . وهذه مطبّات طالما استدرج إليها رجال الإعلام الغربى ، والعربى العلمانى ، بعض المتصدّين للدعوة . . . كقضية المرأة وموقف الإسلام والغرب ، وإذا أحسنا الظن ــ وهذا هو الأولى ــ ببعض علمائنا اليوم ، فإننا ننتحل لمواقفهم المصيرية هذا السبب نفسه .

وحتى لا يكون كلامى همزا ولمزا ، فإننى أورد فقط ذلك الموقف الذى وقفه المصطفون من رجال الدعوة أمام أبناء الصّحوة فى إحدى حواضر العالم الإسلامى ، قد تكون المواقف الشخصية لبعض الجماعات غير إسلامية ! وقد تكون الإساءة لكبار تلك الصفوة من العلماء من قبل بعض المتحمّسين أو إن شئتم (المتهورين) .

وقد لا يعرف صغيرنا لكبيرنا قدره . . . كل هذه التصرفات مشينة ! ما فى ذلك ريب . . . ولكن الذى لا مبرّر له . . . ولا يستسيغه عقل ، ولا يتصوره فكر أن يكون لهذه المواقف الطائشة ردود فعل . . . !

وأن تكون الحظوظ النفسية دوافع ومبلورات لمواقف مصيرية . . . ! ــ ولا زلت أقول مع إحسان الظن ــ فأين أنتم من قول الحق سبحانه : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم** ﴾ [فصلت : ٣٤] . إن تعجب فعجب من الذين يحاربون العنف . . . !

أولئك الذين وقفوا مع الجزار ينادون الحمل ، ويتهجمون عليه ويدعونه أن يكون بريئا وديعا . . . الله الله ! منطقنا يحكّم فينا عالمنا . . . فهذا الإعلام الغربى يكيل للإسلام السباب ويصفه بالقسوة ، ويصف الطفل الفلسطينى اليافع بالإرهابى ؛ لأنه يمسك بحجارة من طين وطنه !

بيد أن الجندى الإسرائيلى المدجج بأعتى أسلحة الدمار ، الماسك بالقنبلة العنقودية والنووية ، فإنه فى منطقهم : الشاب الوسيم المتحضّر الذى أفرزته الحضارة الغربية الإنسانية . . . . وهو المروض لهذه الوحوش الضوارى . يا علماءنا . . . يا آباءنا . . . يا دعاة الإسلام . . . يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد !

تطبيق

١ ـ ما أكثر حالات الطلاق التى تنتج عن الغضب ، فتكون لتلك الانفعالات النفسية التى تذكيها الوساوس الشيطانية ، آثار اجتماعية خطيرة فتنهدم البيوت ، ويتيتم الأطفال ، وترمّل الزوجات ، ثم يستفيق الغاضب من عفوته ، وينجلى عنه ضباب الغضب الذى عتم عنه الرؤيا ، فيستولى عليه الندم ، وتأخذه الحسرة كل مأخذ . . . وهنا يقف فى مفترق طرق خطير ويجد نفسه أمام امتحان عسير .

بين أن يسلّم لحكم اللّه . . ! . . أو أن يختار زوجته على غير شريعة اللّه ، ومن ثم يعاشرها فى الحرام فيثلة بذلك صدر الشيطان الرجيم الذى حقق هدفين خطيرين : الأوّل : حل الرباط الوثيق . وثانيهما : اقتراف جريمة الزنا .

٢ ـ بعض الحمقى لا يجد عند غضبه شيئا يسلط عليه جام غضبه غير الدين ـ والعياذ باللّه من الشيطان الرجيم ـ فيعلوا صياحهم باللعن . والسب والشّتم . . . ولكنهم لن ينسفوا فى الحقيقة عن أنفسهم شيئا ، بل تزداد النار بهم اشتعالا .

الحديث السابع عشر

عن أبى يعلى شدّاد بن أوس ــ رضى الله تعالى عنه ــ عن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتُم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته** » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه مسلم دون البخارى من رواية أبى قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى عن شداد بن أوس، وتركه البخارى؛ لأنه لم يخرج فى صحيحه لأبى الأشعث شيئا وهو شامى .

وقد روى نحوه من حديث سمرة عن النبى ﷺ قال : « إن الله ــ عزّ وجلّ ــ محسن فأحسنوا ، فإذا قتل أحدكم فليحسن مقتوله ، وإذا ذبح فليحد شفرته وليرح ذبيحته » خرجه ابن عدى .

ترجمة الراوى :

هو شدّاد بن أوس المكنّى بأبى يعلى ، وهو أنصارى خزرجى من بنى النجار ، ممن أوتى العلم والحكمة حيث روى عن رسول الله ﷺ خمسين حديثا ، سكن بيت المقدس ــ طهره الله ــ وتوفى عام ثمان وخمسين من الهجرة على الأشهر .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

إن الله ــ عز وجل ــ كتب الإحسان على الناس فى كل شىء بدءا من عباداتهم وعلاقتهم فيما بينهم ، وفيما بينهم والخالق سبحانه .

كتب الإحسان : أى طلبه أو فرضه وأوجبه .

الإحسان : يطلق الإحسان على الرأفة والرفق وعلى إتقان العمل أيضا .

على كل شىء : على هنا بمعنى : (فى) أو (إلى) وعبّر بعلى ؛ تنبيها منه ﷺ على أن يكون الإحسان مستعليا على كل شىء حتى يشمله ويعمه .

فإذا قتلتم : أى إذا أردتم القتل القصاص مثلا أو الذبح .

فأحسنوا القتلة : بعدم الإحراق أو التمثيل .

والإحسان بهذا المفهوم الأخير : أن تعبد الله وتراعيه وتستحيى أن يراك حيث نهاك، أو أن يفقدك حيث أمرك كأنك تراه . وإن لم يصل بك إيمانك إلى هذا المقام الأسمى فتيقن أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

الأصولية :

(لفظ الكتاب يقتضى الوجوب عند أكثر الفقهاء الأصوليين ، خلافا لبعضهم ، قال عمرو بن أبى ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

وإنما استعمال لفظة الكتابة فى القرآن فيما هو واجب حتمى إما شرعا كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴾ [النساء : ١٠٣]، وقوله: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ﴾ [البقرة : ١٨٣] ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ** ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، أو فيما هو واقع لا محالة كقوله تعالى : ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي** ﴾ [المجادلة : ٢١]) (١) .

الفقهية :

يشرع هذا الحديث الشريف وجوب الإحسان حتى إلى الجانى أثناء إقامة الحد عليه، وإلى الذبيحة ، وفى الإجهاز على العدّو أيضا ، وسنبين كل ذلك فى حينه .

أ ــ إقامة الحدود :

لقد اتخذ الإسلام عدة تدابير ناجحة لقطع دابر الجريمة واستئصالها من جذورها ، ثم عمل على تجنيب الذى ترتب عليه حد من الحدود عقوبة الحد متخذا لذلك أساليب عدة منها :

ــ التشديد فى شهادة الشهود لضبط جريمة الزنا ــ وقد سبق بيان ذلك .

ــ استحباب العفو والستر ما لم يبلغ الإمام ؛ لقول الحق سبحانه : ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾[الشورى : ٤٠] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ رفع إليه شىء فيه قصاص إلا أمر بالعفو فيه (٢) .

وجاء ماعز رضى الله عنه إلى النبى ﷺ فأقر عنده بالزنا أربع مرات فأمر برجمه

---

(١) نقلا عن : جامع العلوم والحكم ، ص ١٤٢ .

(٢) رواه أبو داود والنسائى .

وقال لهزال الذى أشار عليه بالاعتراف : « لو سترته بثوبك كان خيرا لك » (١) .

ـ درء الحدود بالشبهات : فعن علقمة بن وائل عن أبيه ـ رضى اللّه عنهما ـ أن النبى ﷺ قال لامرأة أكرهت على الزنا : « اذهبى فقد غفر اللّه لك » (٢) .

ـ كف الحد عند الإقرار : جاء ماعز الأسلمى رضى اللّه عنه إلى النبى ﷺ فقال: إنه قد زنى فأعرض عنه ثم جاء من شقه الآخر فقال : إنه زنى فأعرض عنه ، ثم جاء من شقه الآخر فقال : إنه قد زنى ، فأمر به فى الرابعة فأخرج إلى الحرة فرجم بالحجارة ، فلما وجد مس الحجارة فر يشتد ، فلقيه رجل معه لحى جمل فضربه به وضربه الناس حتى مات ، فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : « هلا تركتموه » (٣) .

ـ الإحسان إلى الحامل حتى تضع حملها ، والنفساء فى أيامها الأولى : فعن عمران بن حصين رضى اللّه عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول اللّه ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت: يا نبى اللّه أصبت حدًا فأقمه على، فدعا نبى اللّه ﷺ وليها فقال : « أحسن إليها فإذا وضعت فأتنى بها » ، ففعل فأمر بها نبى الله ﷺ فَشُكَّتْ عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى اللّه وقد زنت؟! فقال : «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها للّه تعالى ؟ ! » (٤) .

ـ ومن الرأفة بالقتيل والإحسان إليه : عدم حرقه بالنار لأنه لا يحرق بالنار ؛ إلا رب النار ، وكذلك عدم المثلة به ؛ لأن النبى ﷺ نهى عن المثلة فقال : « من مثل بذى روح ثم لم يتب ، مثل اللّه به يوم القيامة » .

ب ـ فى الجهاد وقتال الأعداء :

الإسلام ليس وحشا مفترسا يدفعه التعطش للدماء إلى التقتيل والتنكيل ، بل تفرض عليه الحروف فرضا للدفاع عن عقيدته ، وكيانه ووجوده ، وليزيح العوائق التى تريد صده وإعاقته .

لذا نجده رحيما حتى بمن يقاتلونه ، حيث يترك لهم فرص التراجع عن مبدأ القتال والمهادنة والمصالحة ، ثم لا يكون هو البادى بالشرارة الأولى . ولو حل المتعصبون العصابة التى تعمى أبصارهم عن الحقائق وتساموا قليلا عن هذا الحقد الدفين الذى أشربوه لوجدوا خطب الرسول ﷺ فى جنده تنم عن قلب يفيض بالإحسان ،

---

(١) رواه أبو داود والنسائى .
(٢) رواه أصحاب السنن .
(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .
(٤) رواه مسلم ، وأبو دارد ، والترمذى ، والنسائى .

وصدر تملؤه الرحمة والحنان حيث وصى ﷺ جيشه فى غزوة مؤتة وهو يتأهب للرحيل : « لا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضرعًا (١) ولا كبيرا فانيًا ، ولا تحرقن نخلا ، ولا تقلعن شجرا ، ولا تهدموا بيتا » .

وعن ابن عباس ؛ أن النبى عليه السلام كان إذا بعث جيوشه قال : « لا تقتلوا أصحاب الصوامع » .

جـ ــ الرفق بالذبيحة :

جاء فى مسند الإمام أحمد عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلا قال : يا رسول اللّه، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها أو قال : إنى لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : «والشاة إن رحمتها رحمك اللّه » .

١ــ ومن الرحمة بالذبيحة إحداد الشفرة ؛ لأن ذلك يعجل فى زهق الروح .

٢ــ ومواراة الشفرة نفسها عن الحيوان ؛ لأن رؤيته لها يزيد فى تعذيب الحيوان نفسيا، قال الإمام أحمد يروى عن ابن أسباط أنه قال : إن البهائم جبلت على كل شىء إلا أنها تعرف ربها وتخاف الموت .

وعن ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ قال: مرّ رسول اللّه ﷺ على رجل واضع رجله على صفحة شاة، وهو يحد شفرته وهى تَلْحظ إليه ببصرها، قال: « أفلا قبل هذا أو تريد أن تميتها موتتين ! ! » (٢) .

٣ ــ وأن يقودها إلى الذبح برفق وإحسان ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قال: مرّ رسول اللّه ﷺ برجل وهو يجر شاة بأذنها ، فقال رسول اللّه ﷺ : «دع أذنها وخذ بسالفتها » (٣) ، والسالفة مقدم العنق ــ وعن ابن سيرين أن عمر رأى رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها ، فقال له : ويلك قدها إلى الموت قودا جميلا .

٤ ــ كما ورد أيضا التشديد فى النهى عن التمثيل بالحيوان ، عن ابن عمر رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ قال : « من مثل بذى روح ، ثم لم يتب مثل اللّه به يوم القيامة » (٤) .

٥ ــ كما ورد النهى عن قتل الحيوان دون هدف إحلاله والاستفادة من لحمه ، عن الشّريد رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « من قتل عصفورا عبثا

---

(١) ضرعًا : ضعيفًا.
(٢) رواه الطبرانى .
(٣) أخرجه ابن ماجه .
(٤) رواه أحمد .

عجّ (رفع صوته) إلى الله يوم القيامة يقول : يا رب إن فلانا قتلنى عبثا ولم يقتلنى منفعة » (١) .

٦ ــ وحرم الإسلام أن تصبّر البهائم وصبْرها حبْسها وضربها بالنبل أو الحجارة أو غيره حتى تموت، ففى الصحيحين عن أنس ؛ أن النبى ﷺ نهى أن تصبر البهائم ، وفيهما أيضا عن ابن عمر أنه مرّ بقومٍ نصبوا دجاجة يرمونها ، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا .

٧ ــ وورد النهى عن التفريق بين الوالدة ورضيعها عن النبى ﷺ أنه : نهى أن تولَهَ وَالدة عن ولدها .

الأخلاقية :

إن ديننا الإسلامى دين تسامح وإحسان ، يحث على الإحسان إلى كل مخلوق قريبا كان أو بعيدا ، مسلما أو غير مسلم ؛ آدميا أو حيوانا .

أ ــ فالإحسان إلى القريب بتعهّده وصلته وأداء حقوقه المشروعة .

ب ــ والإحسان إلى البعيد بعدم إذايته ونصحه وإرشاده ، واحترام شعوره ، وعرضه وماله ، وتعليمه ، وتحمّل أذاه .

جـ ــ والإحسان إلى الذمى بمعاملته بالعدل ، والمحافظة عليه ، والدفاع عنه ، والتاريخ الإسلامى حافل بالأحداث التى تشهد بإحسان المسلمين إلى أهل الذمة ، ومعاملتهم بالحسنى ؛ لأن القاعدة التشريعية تقرّ لهم ما لنا وتوجب عليهم ما توجب علينا فى الأمور الدنيوية ، فهذا الفقيه الفاضل الشهاب القرافى ــ وهو من كبار أئمة التشريع فى الإسلام ــ فى كتابه الشهير (الفروق) يقول : (إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقا علينا ؛ لأنهم فى جوارنا ، وفى خفارتنا ، وفى ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم ، أو أىّ نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى ، وذمّة رسوله ﷺ ، وذمة دين الإسلام) (٢) .

د ــ وكذلك ــ من أخلاق الإسلام ــ الإحسان إلى الحيوان مهما كان ؛ لأن الحق سبحانه أمر بالإحسان إلى ما ملكت أيماننا فقال : **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ**

(١) رواه النسائى .

(٢) انظر : الفروق ، للشهاب القرافى .

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾[النساء : ٣٦] .

وكما ورد فى الصحيح : أن اللّه غفر لبغىّ ــ زانية ــ بسقاية كلب، وعذب امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا .

السياسية :

إن النظم السياسية الغربية اليوم والتى تتشدّق بالرأفة والرحمة ، جديرة بالوقوف أمام التشريع الإسلامى موقف التلميذ من أستاذه لتقلم من أظفارها، وتحد من همجيتها وشراستها؛ لأنها فى الوقت الذى تدعى فيها رعاية جمعيات الرفق بالحيوان وتتعهّدها تبيح لنفسها إبادة الشعوب البريئة :(إن القرن العشرين يجيز لك مثلا أن تقتل أربعين ألفا فى الشمال الإفريقى فى مجزرة واحدة لأنهم أبرياء ، ولكن كيف يجيز لك أن تعاقب فردا واحدا لأنه مجرم أثيم ! !) (١) .

بيد أن أعداء الإسلام أنفسهم من المفكرين المنصفين يشهدون بسماحة الإسلام وإحسان ساساته إلى الشعوب والبلدان المفتوحة ، ومن هؤلاء الدكتور« جوستاف لوبون» حيث يقول فى كتابه : (حضارة العرب) : (سيرى القارئ حين نبحث فى فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم : أن القوّة لم تكن عاملا فى انتشار القرآن ، وأن العرب تركوا المغلوبين أحرارًا فى أديانهم ، فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له ، فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذى لم يكن للناس عهد بمثله ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم تعرفها الأديان الأخرى) (٢) .

ويقول الكاتب نفسه فى موضع آخر :

(كان يمكن أن تعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم ؛ فيقترفون من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ؛ ويسيؤون معاملة المغلوبين ؛ ويكرهونهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى أنحاء العالم ، ولو فعلوا ذلك لتألّب عليهم جميع الأمم التى كانت بعد غير خاضعة لهم ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيّين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخّرا ، ولكن الخلفاء السابقين الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة، أدركوا أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرا ، فعاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم

---

(١) شبهات حول الإسلام ، لمحمد قطب ص ١٥٠ ، ط : دار الشروق ، ١٩٧٨ م .

(٢) نقلا عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ، ص ١٤٥ .

ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الأمن بينهم ، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب)[١] .

(ورحمة الفاتحين وتسامحهم كان من أسباب اتساع فتوحهم واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التى رسخت وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم ، وإنْ أنكر ذلك المؤرّخون ، وتعدّ مصر أوضح دليل على ذلك ، فقد انتحلت مصر ما جاءها به العرب وحافظت عليه ولم يستطع الفاتحون الذين سبقوهم إليها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة وأن يحملوها على ما أتوها به) [٢] .

ويقول أيضا فى موضع آخر :

(وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المنصفين القليلين الذين أنعموا النظر فى تاريخ العرب ، قال « روبرتسون » فى كتابه (تاريخ شارلكن) : إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحرارًا فى إقامة شعائرهم الدينية) .

وقال « ميشود » فى كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : إن الإسلام الذى أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وقد حرم قتل الرهبان ــ على الخصوص ــ لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، وقد ذبح الصليبيّون المسلمين ، وحرقوا اليهود حينما دخلوها .

الصناعية :

إن إحسان المرء فى عمله يقضى إتقانه للصناعة التى يصنعها وللمهنة التى يمتهنها؛ لأنه يراقب ربه ، كما أن الأمر بإحداد الشفرة يحفّزنا على الخوض فى غمار الصناعة الحديدية الخفيفة منها والثقيلة ، قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾[الحديد : ٢٥] .

فقـه الدعـوة

على الداعى أن يحسن إلى من يدعوهم،فيدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾[النحل : ١٢٥] .

---

(١)نفس المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

(٢)نفس المصدر ، ص ٦٢٩ .

وإن ناقشوه فى دعوته فليتقبّل نقاشهم بصدر رحب وأن يقنعهم ــ ما استطاع ــ بالدليل والحجة .

ليست الدعوة فى سبيل اللّه مجرّد عواطف متأججة ، وعبارات بليغة ، ونيات خالصة فحسب ، بل هى دعوة بالفقه والتبصر : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف : ١٠٨].

والعامّة تزدرى كل من تصدّى للدعوة والإمامة ويعجز عن أسئلتها الفقهية ، فلقد فقد أحدهم مكانته حينما سئل عن بعض أحكام الزكاة فبهت !

تطبيق

١ ــ شتان ما بين القصاص فى الإسلام ، وأحكام الإعدام التى تتم اليوم بتعسف واستبداد .

٢ ــ يعيب بعض رواد الأيديولوجيات نظام الإسلام ، ويتهمونه بالقسوة والغلظة ، وهو فى الحقيقة منها براء ؛ لأنه حينما شرع القصاص كان أشد رحمة بالمجتمع لأنه جنّبه الاضطراب الأمنى ، والقلق النفسى ، والانفصام الاجتماعى ، والتدهور الأخلاقى ، كما جنب الفرد هو الآخر كثيرا من الأخطار والأمراض الصحية والأخلاقية قال تعالى : ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة : ١٧٩].

الحديث الثامن عشر

عن أبى ذر جندب بن جنادة ، وأبى عبد الرحمن معاذ بن جبل ــ رضى الله تعالى عنهما ــ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قال :

« **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** » رواه الترمذى وقال: حديث حسن ، وفى بعض النسخ : حسن صحيح .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه الترمذى من رواية سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن ميمون بن أبى شبيب عن أبى ذرّ ، وخرجه أيضا بهذا الإسناد عن ميمون عن معاذ ، وذكر عن شيخه محمود بن غيلان أنه قال : حديث أبى ذرّ أصحّ ، فهذا الحديث قد اختلف فى إسناده فقيل فيه : عن حبيب عن ميمون ؛ أن النبىّ ﷺ وصى بذلك . مرسلا، ورجح الذارقطنى هذا المرسل ، وقد حسن الترمذى هذا الحديث ، وما وقع فى بعض النسخ من تصحيحه فبعيد ، ولكن الحاكم خرجه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ، وهو وهم من وجهين :

أحدهما : أن ميمون بن أبى شبيب ويقال : ابن شبيب لم يخرج له البخارى فى صحيحه شيئا ولا مسلم إلا فى مقدمة كتابه عن المغيرة بن شعبة .

والثانى : أن ميمون بن شبيب لم يصح سماعه من أحد من الصحابة ، قال الفلاس: ليس من روايته سمعت، ولم أخبر أن أحدا يزعم أنه سمع فى شىء من أصحاب النبى ﷺ، وقال أبوحاتم الرازى: روايته عن أبى ذرّ وعائشة غير متصلة ،

اتق الله : لم يقل : اتقيا ؛ لأنه خاطب كلا منهما على حدة ، والتقوى فى اللغة : هى اتخاذ الوقاية من كل ما يخاف منه . وفى الشرع : كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات .

حيثما : « حيث » ظرف مكان زيدت فيها « ما » لإفادة التعميم ، أى : اتق الله فى أى مكان كنت فيه وفى أى زمان.

وخالق الناس أى عامل الناس .

بخلق : « الخلق » بضم اللام : الطبع والسّجية وهو فى العرف صفة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير سابق تفكير ،فإن كانت الأفعال الصادرة عنها محمودة عقلا وشرعا ،سميت هذه الصفة خلقا حسنا وإن كانت مذمومة عقلا وشرعا سميت خلقا سيّئا . ا . هـ . من مختصر النبراوى على الأربعين النووية ، لعبد الرحيم فرج الجندى .

وقال أبو داود : لم يدرك عائشة ولم ير عليّا ، وحينئذ فلم يدرك معاذا بطريق الأولى ، وروى البخارى عن شيخه علىّ بن المدينى وأبى زرعة وأبى حاتم وغيرهم أن الحديث لا يتصل إلا بصحّة اللقى ، وكلام الإمام أحمد يدلّ على ذلك ، ونصّ عليه الشافعى فى الرسالة ، وهذا كله خلاف رأى مسلم ــ رحمه اللّه ــ وقد روى عن النبى ﷺ أنه وصّى بهذه الوصية معاذا وأبا ذرّ من وجوه أخر .

ترجمة الراويين :

هما أبو ذر جندب بن جنادة ــ بتثليث دال جندب ــ أسلم بمكة ، وروى عنه أنه قال : أنا رابع الإسلام يعنى أهله، وصفه رسول اللّه ﷺ بأنه أصدق الناس لهجة، فقال: « ما أظلت الزرقاء ــ السماء ــ ولا أقلّت الغبراء ــ الأرض ــ أصدق لهجة من أبى ذرّ». روى له مائتا حديث وواحد وثمانون حديثا ،مات بمحل قرب المدينة يدعى الربذة .

وأبو عبد الرحمن معاذ بن جبل الأنصارى أسلم وسنّه لا تتجاوز الثامنة عشرة سنة، وشهد المشاهد كلها ، ومن مناقبه أنه من الذين حفظوا القرآن فى حياة النبى ﷺ، وقال فيه: « أعلم الناس بالحلال والحرام معاذ بن جبل » (١) .

سبب ورود الحديث :

سبب ورود هذا الحديث أن أبا ذرّ الغفارى رضى اللّه عنه لما أسلم بمكة قال له النبى ﷺ: « الحق بقومك رجاء أن ينفعهم اللّه بك» . فلما رأى حرصه على المقام معه بمكة، وعلم ﷺ أنه لا يقدر على ذلك قال: « اتق اللّه حيثما كنت . . . » الحديث . فإنه أولى لك من الإقامة بمكة ، وهو أمر عام يشمل جميع المسلمين ، فلا يختصّ به مخاطب دون مخاطب .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« اتق اللّه حيثما كنت » .

فلا تتقيّد التقوى بمكان دون آخر،أو بزمان دون زمان ؛لأن اللّه تعالى لا تحده جهة، بل هو الخالق للمكان والزمان ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ١١٥] . وأنه لا يحده المقدار،ولا تحويه الأقطار،ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون والسموات .

وهو مع ذلك قريب من كل موجود كما قال عن نفسه: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ**

(١)رواه الترمذى بسند صحيح من حديث انس .

مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦].

وهو على كل شىء شهيد : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾ [المجادلة : ٧].

ولا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء تعالى عن أن يحويه مكان ، أو أن يحده زمان ، بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان .

علم السلوك :

حقيقة الولى التقى سنفصّلها ــ إن شاء الله ــ فى الحديث الثامن والثلاثين ، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن ننبّه إلى خطأ التصوّر الشائع للوليّ ، حيث ترتسم فى الأذهان أنه هو ذلك الدرويش ، أو المعتوه ، أو من يتجلبب الجلباب الأخضر ، ويطيل لحيته ، ويشعث رأسه ، ويغبّر وجهه .

ولكن الولى هو من اتصف بما وصف الله به أولياءه حيث قال سبحانه:﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢،٦٣].

والتقوى هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، واتخاذ الطاعات وقاية وحاجزا يقى المتّقى من النار ، وعلى هذا فالوليّ لا يكون وليّا للرحمن إلا إذا آمن بالله واتقاه ،ولا يكون متقيا لله إلا إذا عمل بما يرضى الله ــ عزّ وجل ــ وتحلّى بهذه الخلال : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣ ــ ١٣٥] .

وأما إذا ادّعى الولاية ادعاء صوريا ، وتحلل من جميع ما فرض الله عليه بحجّة ارتقائه سدة اليقين ــ الباطلة ــ فإنه يصبح بذلك وليّا للشيطان:﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة :٢٥٧] .

الفقهيـة :

« اتق اللّه حيثما كنت » .

وإقامة الصلاة من أهم مظاهر التقوى ، فإذا كان المكلف مأمورا بالتقوى حيثما كان فهوأيضا مطالب بأداء الصلاة فى أى مكان كان فيه من هذا الكون الفسيح ، ومن هذا المنطلق يتحدّد الجواب على بعض الأسئلة المستجدة فى هذا الموضوع :

أ ـ كالصلاة على سطح القمر ، أو فى السفينة الفضائية حيث يصلّى الرائد الفضائى كيفما تأتّى له ذلك ، وبالكيفية التى يستطيعها ، ولقد أثبتت زيارة أحد المسلمين للقمر مدى استطاعة الإنسان أداء فريضة الصلاة حتى فى المجال الذى يفقد الكائن فيه ثقله ، ويتحرر من القوى الجاذبة .

ب ـ وكذلك الصلاة فى الغوّاصة التى تغوص مئات الأقدام فى أعماق البحار والمحيطات ، فلا تمنع هذه الوضعية المسلم من أداء صلاته بأى حال من الأحوال لأنها لم تحل دون التسبيح والدعاء قال تعالى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء :٨٧].

جـ ـ الصلاة فى قعر الأرض كحفار الآبار ، وعمال المناجم والمساجين فى الأنفاق والخدود كل أولئك يصلون الخمس ويصومون الشهر ، ولا يسقط عنهم شيئاً ذلك الوضع الذى هم فيه .

الاجتماعية :

١ ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:١٣] هكذا تسقط جميع الفوارق والحواجز الأرضية من شعوبية،ووَطنية، وعرقية ، ومالية ، ويرتفع الميزان الأوحد الذى يرفع اللّه به أقواما ويخفض آخرين ؛ إنه معيار التقوى ، ومن هنا تنتفى جميع الادعاءات الزائفة لبعض الشعوب المغرورة بالأفضلية والمجنونة بالعظمة،كأولئك الذين يدعون أنهم شعب اللّه المختار. . .الذى يجوز له أن يسحق شعبا أعزل ويبيد الأبرياء . . . لأنه موعود بتلك الأرض !

٢ ـ كما أن التقوى هى العامل الأساسى فى تمتين وتمديد العلاقات الاجتماعية وتتحلّل لا محالة كل الروابط المبنية عَلى غير التقوى كالنسب ، والتجارة والزمالة . . . و. . . و. . . قال تعالى: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧] .

الأخلاقية :

« وخالق الناس بخلق حسن » .

أولى الإسلام الأخلاق الحميدة عناية هامة :

١ ـ حيث جعل العبرة بالجوهر لا بالمظهر . . « إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »(١) .

٢ ـ حصر البر ـ الجامع لأعمال الخير ـ فى الخلق الحسن،عن النواس بن سمعان: « البرّ حسن الخلق »(٢) ، وعن عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ قالت :سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم »(٣) .

٣ ـ وهذا الثناء القرآنى على رسول اللّه ﷺ :﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] .

٤ ـ كما فضل رسول اللّه ﷺ صاحب الخلق الحسن على سائر البشر فقال فى حديثه المروى عن ابن عمر رضى اللّه عنهما : « خياركم أحاسنكم أخلاقا »(٤) .

٥ ـ وليس ثمة أثقل فى ميزان المؤمن يوم العرض على اللّه ، من الأخلاق الكريمة لما رواه أبو الدرداء رضى اللّه عنه ؛ أن النبىّ ﷺ قال : « ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن اللّه ليبغض الفاحش البذىء »(٥) .

وعن جابر رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منّى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا »(٦) .

هذه الأخلاق الحميدة التى تعود بالخير على الدعوة نفسها ، وعلى المجتمع وتجنبه ويلات وخسارات عظيمة . . .وتعود أيضا على ذى الأخلاق نفسه من جهة أخرى:

أولا : حيث تغرس وشائج المحبة فى الوسط الذى يتعامل معه المتخلق .

ثانيا: وتجنبه ـ أخلاقه ـ مكايد الأعداء، وتحفظه من شرورهم، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت: ٣٤] .

النفسية :

« وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

علاج نبوى للنفس البشرية، ونصيحة غالية لكل من اقترف ذنبا ، وارتكب معصية حتى لا يصاب بالإحباط وحتى لا يقتله الندم ، وتأخذه الحسرة كل مأخذ ﴿ **يَا وَيْلَتَىٰ**

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن حبان ، والحاكم .
(٤) رواه الترمذى ، ومسلم ، والبخارى .
(٥) رواه الترمذى ، وأبو داود .
(٦) رواه الترمذى .

لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلا ﴾ [الفرقان:٢٨] ، ﴿ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة:٢٥]، ﴿ ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامة ﴾ [القيامة:٢] .

عليه أن يسارع بتكفيرها ، وما تكفيرها بالأمر الجلل بل إتباعها بحسنة . . . فلا تلبث هذه (أى الحسنة) حتى تمحو أثرها ، وتغطى رسمها ، وتقلع بعد التوبة نكتها من القلب .

ومن ثم تصبح المعصية حافزا قويّا ودافعا كبيرًا لمن له مثقال ذرة من الإيمان إلى الطاعات وفعل المبرّات .

ولقد أصيب أقوام بانتكاسة نفسية خطيرة ، وبالتالى انعكست على أخلاقهم وسلوكياتهم حينما جهلوا هذه الحكمة النبوية الشريفة فحكموا على أنفسهم بالشقاء الدائم ــ والعياذ بالله ــ فيقول قائلهم : ما دمت قد فعلت كذا وكذا وارتكبت هذا الجرم الشنيع فلا فائدة من فعل الخير بعدئذ !

السياسية :

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] .

إذًا هذه صفات المتقين الذين لا يوالون غير رب العالمين ، فلا يوالون اليهود ولا النصارى ، ولا ينتهجون نهجا غير النهج الرّبانى ، ولا يولون وجوههم قبل الفلسفات المادية الشرقية والغربية، فعندهم ما يغنيهم عن كل ذلك . قال أبو العالية : (كانت اليهود تقبل قبل المغرب ، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق ، فقال الله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:١٧٧]) (١).

العسكرية :

إن المعارك الإسلامية المظفّرة والتى يسجّلها تاريخنا المجيد باعتزاز وافتخار لم ينتصر فيها قادتها بالشروط المادّية المتاحة لهم والأسلحة المتوفّرة لديهم فحسب، بل ترجع أساسا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، لمحمد على الصابونى ١ / ١٥٣ .

إلى تسلحهم بما هو أقوى من ذلك ألا وهو : سلاح الإيمان ، سلاح التقوى ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ،وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

ولقد كان الخليفة ابن الخطاب رضى الله عنه يوصى جنده بالتقوى والورع مبينًا أنّهم لاينصرون بكثرة العدد ولا بقوة العدّة بل بانتصارهم على أنفسهم وتغلبّهم على شهواتهم.

ولنتمعن قليلا فى الظروف التعبُوية العامّة فى كل من معركة بدر الكبرى وغزوة حنين ، ففى بدر حقق المسلمون أول انتصار عسكرى باهر رغم أن عددهم لا يتجاوز ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا حسب رواية ابن إسحاق ، بينما كان جيش المشركين يناهز التسعمائة مقاتل ، ومع ذلك قتل منهم سبعون وأسر سبعون بينما ضاقت على اثنى عشر ألف مقاتل من المسلمين الأرض بما رحبت ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

الاقتصادية :

لقد تكفّل الحق سبحانه برزق المتقين فقال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

والتكفّل إنما يكون بتسهيل أسباب الرزق ، والإعانة على أعباء الاسترزاق الشاقّة والذى يتق الله سبحانه حيثما حلّ وارتحل ، وسكن وتحرّك فلا شك فى إخلاصه فى عمله، وأدائه على الوجه الأكمل باحترام المواعيد الزمانية، والمقاييس الصناعية، والحرص على الجودة والإتقان ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] .

ثم ها هو إخلاص الغنى الخبير يتجلى فى السد الذى أقامه ذو القرنين ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾[الكهف : ٩٤ ـ ٩٧] هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فإن المجتمع الذى تقوم أسسه على التقوى مجتمع متكافل لا تتداول أمواله طائفة معينة أو طبقة معينة تحتكره ، بل يتعهّد أغنياؤه فقراءه فلا تهدّده

أشباح المجاعة أو الاستعباد أو الاسترقاق أو الاستدمار أو تحديد النسل وتنظيمه .

فقه الدعـوة

١ ــ عدم الإفراط فى معاتبة المسيئين وتوبيخ المذنبين ؛ لأن ذلك يورث البعض منهم الانكسار والمذلة ، ويحفز البعض على الإصرار فى الإساءة ، وهاهو يعقوب عليه السلام بحكمته لا يكشف لأبنائه عن حقيقتهم التى يعرفها مسبّقا من إرهاصات بيّنة ، ومن خلال مواقفهم وعواطفهم نحو يوسف عليه السلام المقرب عليهم إلى قلب والدهم، والمدلّل فى نظرهم .

فهم حينما طلبوا من أبيهم إرسال يوسف معهم ﴿ **قالُوا يا أَبانَا ما لكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وإنَّا لَهُ لَناصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ** ﴾[يوسف :١١، ١٢].

أجابهم بتلطف ودون أن يصفهم أكثر من ﴿ **وأَنتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ** ﴾ قال تعالى: ﴿ **قَالَ إنّي لَيَحْزُنُني أَن تَذْهَبُوا بِهِ وأَخافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وأَنتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ** ﴾[يوسف : ١٣] .

ونفس الأسلوب اتبعه معهم حينما عادوا من فعلَتهم متظاهرين بالحزن والبكاء، ورغم توفّر جميع الدلائل ليعقوب عليه السلام على صحة حدْسه فى أبنائه وهى :

أ ــ ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً** ﴾[يوسف : ٥].

ب ــ مجيؤهم بالقميص غير ممزّق ولا مخرق مما يفنّد افتراس الذئب له ، ومع كل هذا عقّب على افتراء أبنائه عليه فقال : ﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾[يوسف : ١٨] .

٢ ــ الاعتماد فى الدعوة للإسلام على الأخلاق الحسنة ومعاملة المدعوّين ــ وغيرهم ــ معاملة أخلاقية طيبة ، بعيادة مريضهم ، وإعانة محتاجهم ، ونصر المظلوم فيهم، وإغاثة ملهوفهم ، وإعالة يتيمهم .

لما للأخلاق من تأثير بالغ ، أما إذا كان الناس لا يرون داعيهم إلا على المنبر ، فإن كلامه لا يفارق مكانه أبدا .

تطبيق

١ ــ « اتق اللّه حيثما كنت » . رغم أن التعبير النبوى دقيق وبليغ،ومع ذلك فلا زال يسود اعتقاد خطير مفاده أن التقوى تتوقّف على أزمنة وأمكنة كرمضان مثلا الذى

يعتبره البعض موسما دينيا « وحيدا » يتوب فيه العاصى ويصلى فيه تارك الصلاة ، بل ويحجم الخمار عن معاقرة أم الخبائث قبل رمضان بأجل ــ فى بعض الجهات ــ ثم لا يلبث رمضان أن ينتهى فتنطلق قوى الشر وكأنها حلت من عقالها .

وكذلك الاعتقاد نفسه فى الأمكنة المقدّسة ... والمساجد ، والحقيقة أن هذه التصوّرات من العقيدة النصرانية الباطلة ومنبثق من هيمنة الاستعمار المسيحى على البلاد الإسلامية أمداً من الدّهر .

٢ ــ ويتصوّر البعض أن الحسنة تمحها السيئة إذا أردفت عليها، ولكن الحديث يقرّر العكس ، (وإنما كانت الحسنة تمحو السيئة ؛ لأن الشيء يزول بضدّه ،كما نراه فى المحسوسات ، وكان مقتضى ذلك أن الحسنات تمحوها السيئات ، إلا أن فضل الله عظيم، ومن هذا الفضل أن السيئة لا تمحو الحسنة ، ما دام العبد مؤمنا)(١) .

وأما حديث :« إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » ، فمعناه أن المحسود يأخذ من حسنات الحاسد كثيرا حتى يذهب بها ، والحديث رواه أبو داود عن أبى هريرة .

٣ ــ اعتماد البعض على أسلوب فظ غليظ فى الدعوة للّه ، وينصّبون من أنفسهم قضاة لا دعاة يأمرون بجفاء وينهون بغلظة تنفّر القلوب منهم ، وربما مما يدعون إليه ،فيكونون سببا فى عزل الكثيرين عن الإسلام من حيث لا يقصدون أو حتّى لا يشعرون ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] .

(١) مختصر النبراوى على الأربعين النووية ص ٦٩ ، ط : القاهرة .

الحديث التاسع عشر

عن أبى العباس عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال: كنت خلف النبى ﷺ، فقال : « **يا غلام ، إنى أعلمك كلمات :**

احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ،إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضرّوك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفّت الصحف »رواه الترمذى وقال :حديث حسن صحيح.

وفى رواية غير الترمذى : « **احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدّة ،واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك،وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا** » .

تخريج الحديث :

خرجه الترمذى من رواية حنش الصنعانى عن ابن عباس ، وخرجه الإمام أحمد من حديث حنش الصنعانى مع إسنادين آخرين منقطعين ولم يميّز لفظ بعضها من بعض.

واللفظ الذى عزاه إلى غير الترمذى رواه عبد بن حميد فى مسنده بإسناد ضعيف عن عطاء عن ابن عباس ، وكذلك عزاه ابن الصلاح فى الأحاديث الكلية التى هى أصل أربعين الشيخ ــ رحمه الله ــ إلى عبد بن حميد وغيره .

وقد روى هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة من رواية ابنه علىّ ومولاه

خلف النبىّ : أى راكبا خلف النبى ﷺ على بغلته .

يا غلام : ناداه بيا غلام لصغرسنه ؛ لأنه كان ابن عشر سنين .

كلمات : جمع كلمة ، والمراد بها الجملة المفيدة .

احفظ الله : احفظ دين الله .

يحفظك : بأن يحفظه فى نفسه وماله .

تجاهك : تجد معونته لديك .

رفعت الأقلام : كناية على القضاء الأزلى عن وفق العلم .

الكرب الشدة .

عكرمة وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار وعبيد الله بن عبد الله، وعمر مولى عفرة وابن أبى مليكة وغيرهم .

وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعانى التى خرجها الترمذى كذا قاله ابن منده وغيره .

ترجمة الراوى :

هو عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وحنكه النبى ﷺ بريقه ودعا له بقوله : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » فعنه رضى الله عنه وعن أبيه قال : ضمنى النبىّ ﷺ إلى صدره وقال : « اللهم علمه الحكمة »(١).

وعنه أيضا قال : دعا لى رسول الله ﷺ أن يؤتينى الحكمة مرتين (٢) .

وكان طويلا جسيما أبيض وسيما صبيح الوجه ، قال فيه عمر بن الخطاب : عبد الله فتى الكهول ، له لسان سيول ، وقلب عقول .

وقال مسروق : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجمل الناس ، فإذا تكلّم قلت: أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس ، وفى آخرعمره كفّ بصره ، وتوفىّ بالطائف سنة ثمان وستّين ، وهو ابن سبعين سنة وصلى عليه محمد بن الحنفية ــ رضى الله عنهم أجمعين .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« احفظ الله . . . . »

١ ــ يجدر بنا أن نشير هنا إلى بعض المغالطات التى أشاعتها أمة التضليل ــ اليهود ــ لتشويه العقيدة الإسلامية وهزّها من أسّها فى النفوس ؛ إذْ يترصّدون المتشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل حسب أهوائهم وميولهم، ويترقّبون المجازات العقلية والكنايات البلاغية فى الأحاديث النبّوية ليفعلوا بها مثلما يحاولون فعله مع القرآن الكريم نفسه .

فهم حينما سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ من ذا الذي يُقرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾[البقرة : ٢٤٥] ، قالوا : يا محمد افتقر ربك فسأل عباده

(١) رواه البخارى والترمذى .

(٢) رواه الترمذى بسند حسن .

القرض، فأنزل الله: ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

لهذا آثرت التنبيه إلى ما يقال عن قوله ﷺ : « احفظ الله » من ادعاءات مسمومة، ولأبيّن أن حفظ الله حفظ شريعته وتطبيق أحكام كتابه واجتناب محرماته .

٢ ــ « إذا سألت فاسأل الله » . إن السؤال والاستعانة بالله من مقتضيات التوحيد الخالص ؛ لأنك إن وليت وجهك بعد صلاتك للضريح الفلانى ، أو للولى العلانى ، أو أن تقول قول البعض : بالله ويا سيدى عبد القادر، وبالله ويا ديوان الصالحين، أو نظرة يا فلان، فقد اعتقدت أن ما يملكه هذا الشريك لا يملكه الله أو هو أكرم من الله، وبالتالى فلا حاجة من عبادة الله الذى لم تعتقد فيه الكمال والقدرة على جلب النفع ودفع الضر لوحده !

إذًا فمن أساسيات التوحيد وركائزه التمحض فى الاستعانة والسؤال من الله وحده؛ لأنه هو القادر وحد وما دونه من نبى أو ولى لا يملك لنفسه، ناهيك عن غيره جلب الخير بله عن دفع الشر ، وها هو الحق سبحانه ، يقول صفيه محمد ﷺ :

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ﴾ [الحج : ١٢] .

٣ ــ « رفعت الأقلام وجفت الصحف » . المقصود من ذلك بيان أن ما علم الله فى الأزل أنه سيكون قد أراده وقضاه أزلا ، وما علم أنه لا يكون فقد أراد أزلا أنه لن يكون ، فالكلام كناية عن القدر الأزلى وفق علمه سبحانه ، وقيل : إن الكتابة حقيقية والمراد بالأقلام والصحف القلم الذى كتب فى اللوح المحفوظ ــ بأمر الله ــ كل شىء سيكون إلى يوم القيامة ، وجمع الأقلام والصحف للتعظيم .

٤ ــ « . . تعرف إلى الله . . » . التعرف إلى غيرك : أن تفعل ما يكون سببا فى معرفته إياك ، وذلك مستحيل فى حق الله تعالى ، قال عز من قائل : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ [النجم : ٣٢] .

فالمقصود لازمه وهو أن تتقرب إلى الله تعالى بعمل الطاعات ، وترك المحرمات حتى يحبك .

٥ ــ أن هذه الدقة المتناهية ، وهذا النظام المحكم ، وهذه القوانين الكونية

المطّردة، والسنن الإلهية المضبوطة ، دليل قاطع على عظمة الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ يدفع بالتأمل المتدبر المتحرر إلى الإيمان بوحدانية المولى ــ عز وجل ــ والاعتقاد فى تنزهه عن النقائص ، وفى مخالفته للحوادث .

ودليل أيضا على أن الكون إنما هو مبنى على أسباب ومقدمات لا على عشوائية وخزعبلات ، فالنصر مثلا نتيجة سببها الصبر ، واليسر نتيجة تعقب العسر ، والزواج سبب فى الذرية .

غير أن هذه الأسباب لا توجد النتائج بها بل عندها ، والموفق للأسباب الخالق للنتائج هو اللّه سبحانه .

الأخلاقية :

لا وجود للصراع بين الأجيال بين القدماء والمولدين فى المجتمع الإسلامى؛ لأن هذا التنوع الطبيعى ضرورى أيضا للتكافل ولتوريث المآثر والقيم ﴿ **ووصّى بها إبراهيمُ بنيه ويَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُّسْلِمُون**﴾ [البقرة: ١٣٢]، ومن هذا الحديث النبوى نستنبط الأخلاقيات العالية التالية :

أ ــ تقديم أهل الفضل وذوى الجاه والسن فى الركوب .

ب ــ التواضع ، فلقد ضرب الرسول الكريم أروع الأمثلة له : حينما أردف ــ وهو على جلالة قدره ــ غلاما يافعا عبد اللّه بن عباس، وكذلك حينما كلمه وأوصاه.

التربوية :

« يا غلام إنى أعلمك كلمات . . . احفظ اللّه . . . » .

١ ــ الحرص على تعليم الأبناء وتثقيفهم وتكوينهم مع مراعاة كل مرحلة من مراحل حياتهم التى يمرون بها ، وقدرة استيعابهم لنتبع معهم الأساليب التعليمية التربوية المناسبة لتلك الحالة .

كل هذا تستخلصه من مفتتح الحديث النبوى خاصة إذا علمت سن عبد اللّه وطرق التحصيل آنذاك التى تعتمد على الحفظ لا على التدوين ، ومن ثم خفف النبى ﷺ على الصبى فقال : « أعلمك كلمات » بحيث لا تكون طويلة مملة ينسيه آخرها أوّلها . ولا بالقصيرة المخلة للمعنى الذى قد لا يرتسم فى ذهن الغلام تصوره .

٢ ــ علينا أن نغرس سادئ الإيمان فى نفوس الأبناء وأن نعودهم على روح المراقبة حتى منذ نعومة أظافرهم ، وذلك قبل تداخل الفلسفات الإلحادية العقيمة فى عقولهم .

وبهدف تحصينهم عقائديا قبل أن تشوش الأيديولوجيات الأرضية أفكارهم وتسود صحائفهم الفطرية .

٣ ــ والوصية تغرس فى الصبى مبدأ إسلاميا هاما يقيم العدل فى المجتمع بل وفى الكون كله ألا وهو : ــ الجزاء من جنس العمل ــ وتدّبر معى إن شئت فى قوله ﷺ: «احفظ اللّه يحفظك ».

وفى قوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : ٧] ، ومن أجل هذا وجد قانون الجزاء الذى يحفز الهمم ، ويفجر الطاقات ويستثمر القدرات . أما إذا اطمأن الابن من تنفيذ رغباته بدون تحفيز وتعوّد على النجاح لاعتبارات ــ أنا فى حل من الخوض فيها ــ فإنه سيعيش خمولا متواكلا ، وهذا الداء هو المسؤول عن تخلف المسلمين اليوم .

٤ ــ وتعليم الولد أن الغنى القادر الذى بيده الخير كله هو اللّه ــ عز وجل ــ يربى فيه الأنفة والاستغناء ــ من غير تكبر ــ عن جميع المخلوقات ، وتحفظ له ماء وجهه من التذلل والسؤال، ويتعلم أن السبيل الوحيد للاسترزاق والاستغناء هو العمل والجد الذى قد يوفقه اللّه للنتائج حسب تقديره تعالى ومشيئته ، أما الإلحاف والإلحاح ، وخفض الأكف والانكسار والتملق وعبادة الأشخاص ، فلا تزيد على الرزق المقدر شيئا ولا يحصد أصحابها إلا هدر الكرامة وضياع الشرف .

٥ ــ وجانب آخر يجب الاهتمام به وهو بيان نعم اللّه الجسدية الجليلة وبقية النعم المحيطة بالصبى والمحسوسة لديه كالسمع، والبصر ، و وجود الأبوين مثلا ، والماء ، والطعام، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى نركز على الأسباب ونبين أن انتهاج الأسباب بتوفيق اللّه فإذا لم نوفّق فلنتهم أنفسنا أمام صبياننا . . ولنشكك فى الأسباب، وندربهم على التعليق على مشيئة الرحمن سبحانه .

وبهذا نضمن ــ بإذن اللّه ــ تربية عقائدية نجنب بها أبناءنا أخطار الإلحاد الذى يعمل أصحابه على بثه بطرق شيطانية عديدة : إحداهن يعمدون إلى الطفل المسلم ويقولون له : اطلب من اللّه أن يعطيك لعبة مرة وثانية وثالثة. . . ثم يقولون له : توجه إلينا نحن بالطلب؟ فيسألهم : فيقدّمون له هدية رائعة تبهر الصغير ثم يسألونه مَنْ

مِنَ المسؤولين أجابك هو الموجود ! فى حين تعكف مدارس العالم الإسلامى طوال سنوات تغرس . . . وطنى فيه السكنى لا على حساب العقيدة والتربية والتوجيه، بل وعلى حساب العلم نفسه!

٦ ــ « . . واعلم أن الأمة . . . . . » تنمّى فى المؤمن روح الشجاعة والإقدام وتنزع منه الخوف والإحجام، قال تعالى : ﴿ **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ** ﴾ [آل عمران : ١٥٤]، ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء : ٧٨] .

٧ ــ وفيه تربية للنشء على الصبر عند الملمات وتحّمل الشدائد ؛ لأن الكرب يعقبه لا محالة الفرج ، وأن اليسر عند العسر ، وأن المصيبة مهما كانت هى ابتلاء وامتحان ، وهى فى الكتاب مقدرة قبل خلق السموات والأرض ، وأن العالمين أجمعين لا يملكون دفعها عمن شاؤوا ولاجلبها لمن شاؤوا ، ومن ثم فعلى المسؤمن التحلّى بالصبر وعدم التبّرم والضجر.

النفسية :

« واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم . . ».

١ ــ الغرور داء خطير إذا أصاب فردا أيّا كان فضلا عن أن يكون مسؤولا أو قائدا أوحاكما يهوى به إلى الجنون بالعظمة كالذى أصاب فرعون أو نمرود أو قارون ، هذا الذى نسب غناه إلى علمه وحنكته ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا** ﴾ [القصص : ٧٨] .

وقد بلغ ببعض القادة وأرباب الحكم إلى الاعتقاد فى أنفسهم أنهم الأرباب والأنبياء. والعباقرة الملهمون ، والأقوياء الذين لاتقف أمام قوتهم حتى يد القدر فقال قائلهم: لوامتدت يد القدر إلى حزبنا لقطعت! وحتى يجنبنا الحبيب ﷺ هذه المخاطر النفسية لفت انتباهنا إلى شىء عظيم فقال : « واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك » .

أبدا ليست قوّتك هى المنجية ، ولا عقلك ودهاؤك هو الراد لقضاء اللّه المغير لمجريات الكون وسنن اللّه تعالى !

٢ ــ والمعنى السابق نفسه يجنبنا القلق النّفسى ويكفينا شرور الهواجس والاضطرابات النفسية، والحيرة « وما أصابك لم يكن ليخطئك » فلا داعى إذن

للضجر، ولا لضرب الأكف ولا للزفرات والحسرات، فقد ورد فى حديث آخر: «.. ولا تقل: لو أنّى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدّر اللّه وما شاء فعل » .

٣ ــ «واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا ». بينت هذه العبارات النبوية البليغة : أنه لا مكانة لليأس فى قلب المسلم مهما تأزّمت الأحوال واشتدت الأهوال قال تعالى : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[يوسف : ٨٧] .

ــ ففى المعارك حينما يحمى الوطيس ويشتّد البأس فعلى المجاهدين بالصبر؛ لأنه أهم أسباب النصر لقوله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة : ٢٤٩] .

ولقوله ﷺ : « لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا اللّه العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا ولا تفرّوا فإن اللّه مع الصابرين » (١).

ــ وفى الشدائد بشكل عام كالمرض والضيق والحرج ؛ لأنه لا كرب إلا ويعقبه فرج ولاعسر إلا ويهزمه يسران ، فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف أنه ﷺ قال : «لن يغلب عسر يسرين » ؛ لأن اللّه ذكر العسر واليسر مرتين غير أن العسرجاء معرفا والمعرفة عند العرب إذا تكررت توحدت .

السياسية :

« احفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده تجاهك » .

١ ــ حفظ اللّه : حفظ لشريعته وامتثال لأوامره واجتناب لنواهيه ، والحفظ بهذا المعنى غير موكول بالأفراد فحسب ، بل وتطالب به الجماعات والهيئات ، والحكومات: فإذا انتهجت النهج الربّانى ، واحتكمت إلى الدستور القرآنىّ فى جميع المجالات وعلى كل المستويات ، فقد حفظت شرع اللّه ، ومن ثم فإنها لا تعدم حفظ اللّه لها من جميع أشكال المضايقات والفتن التى تعترض حياة الأمم والشعوب كالشدة والجوع والخوف والهلع والغزو والاستبداد ... وغيرها .

٢ ــ لو وثق الحاكم بربّه ، وكذلك المحكوم أيضا لعلم كل منهما أن رأى الآخر وقوته لا تغنى عن اللّه شيئاً ، وهذا يضمن استقلالية القرار من كل تأثير أرضى خاصة فيما ورد فيه النص ، ومن ثم فلا معنى لاستفتاء شعبى فى غلق الخمارات ودور العهر

(١) الحديث ذكره الإمام النووى فى شرحه للأربعين .

والفجور . . . أو حول قبول تحكيم الشرعية الإسلامية .

العسكرية :

١ — « وإذا استعنت فاستعن بالله » : الخطاب لا يقتصر على ابن عباس ، بل يشمل كل مسلم يمد يده للاستعانة وطلب النصر والغنى ، أو أى حاجة أخرى فلا يهرع إلى شرق المعمورة أو غربها حين تغلق فى وجهه الآفاق ، وتحيط به الفاقة من كل جانب؛ لأن الأمة قاطبة بل والبشرية جمعاء لا تملك أن تستردّ ما يسلبه منها أحقر مخلوق على وجه الأرض، فضلا عن أن تقيم الدنيا وتقعدها ، أو أن تخرق الأرض، أو تبلغ الجبال طولا قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٣ ، ٧٤] .

ولا أن تعارض قدر الله ، وباختصار ليس لهذه الطواغيت العالمية والمحلية التى نولّى لها وجوهنا ونكرس لها تبعيتنا أى دخل فى ملكوت الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

٢ — ثم إن انتصار أى معركة من المعارك مرهونٌ بالتسلح بنوعين من الأسلحة لا يعوض أحدهما غياب الآخر وهما :

أ — السلاح المادى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ب — السلاح المعنوىّ ، وهو ما يسمى برفع الروح المعنوية للجيش ، وهو صلب المعركة ، وقوام النصر ، ولا يسدّ ثغرة انعدامه أى سلاح مادى بأى حال من الأحوال بخلاف العكس فقد يتحقّق !

ولقد حرص القرآن الكريم على تسليح المؤمنين بهذا السلاح ، مركّزا عليه أيّما تركيز منتهزا كل الفرص والمناسبات مبينا أن الموت واحد لا يتعدّد مهما اختلفت أسبابه كقول شاعرنا :

من لم يمت بالسّيف مات بغيره ... تعدّدت الأسباب والموت واحد

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا

فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

وها هو الرسول ﷺ يشحذ الهمم ويعلى الهامات ، ويمد النفوس بطاقات عالية تدفعها إلى البحث عن الموت فى سبيل اللّه بحثا مستميتا .

« واعلم أن الأمة لو اجتمعت . . . واعلم أن ما أخطأك . . . » .

ولكنّنا نفتش الآن عن هذه الأسود الأشاوس فلا نجد لها إلا صورا شمسية ونعد هذه الصور بالآلاف المؤلفة فلا نجد الألف منا إلا كأفّ ، وأصبحت دويلة الغدر والخيانة والاغتصاب ــ بنى صهيون ــ تربتنا فى عقر ديارنا ، وتستعرض عضلاتها فوق أجوائنا وعلى مشارف حدودنا المائية والترابية بل وتضرب من تشاء ، ووقت ما تشاء دون أدنى خجل ولاوجل ، ونقول لها ما قاله الصياد الفاشل :

يالك من قبرة بمعمرى خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقّرى

أما الخجل ؛ فلأنها طلقت الحياء بالثلاث يوم نكهثا لعهود اللّه ، وقتلها للأنبياء بغيرحق !

وأما الخوف فممن يا ترى ؟ أمن الجمل الذى استنوق ؟! أم من أمة يجمعها طرب الفنان ، ويفرقها القرآن : حيث تجرأت طوائف الحكم فيها على أحكامه فألبسها اللّه لباس الذل والمهانة ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل : ١١٢].

وقد جرّ هذا الانهزام المعنوى الخطير للجيوش العربية فى معاركها المعاصرة هزائم منكرة ، وانكسارات هائلة ، فقد أعلن مثلا عن سقوط مئات الكيلو مترات المربعة فى بعض دول المواجهة مع إسرائيل من قبل إذاعاتها قبل أن تطأها قدم صبى يهودى واحد، وهى التى رفع أصحابها المدحورون شعارات تحدى القدر ، ورمى إسرائيل فى عرض البحر !

الاقتصادية :

١ ــ التعرف إلى الله فى رخاء العيش ، ويسر الحال ، وتكاثر الأموال ، إنما يكون بعدم الطغيان والرياء ، وبالإنفاق فى أوجه الخير ، وتحقيق التكافل ، وبالتالى نضمن معرفته لنا أوقات المحن والابتلاء ، ويتمثل تعرفه لنا فى :

أ ــ تسهيل أبواب الرزق وتيسيرها قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣]، ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦]، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : ٦٥ ، ٦٦] .

ب ــ تقوية إيماننا به، وشد عزائمنا ، وتثبيت أقدامنا ، ومدنا بطاقات الصبر والتحمل.

جـ ــ إلهامنا الدعاء والتضرّع إليه ــ عز وجل ــ قال عز وجل : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أُجيبُ دعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُم ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

٢ ــ تحاول النظريات الاقتصادية ــ كما يحاول المحللون والمنظرون معالجة المشكلة الاقتصادية بالبحث عن الأسباب المادية بمعزل عن الأسباب الأخرى ، ومن ثم يأتى العلاج جزئيا ؛ لأنه ينظر إلى المشكلة بعين واحدة ، أو من زاوية واحدة .

ــ هذا إذا سلمنا بسلامة التحليل الجزئى ونجاعة العلاج أيضا .

ويأتى موقوتا ؛ لأنه يعالج النتائج والآثار ، فلا تلبث أن تتولّد نتائج أخطرما دامت الأسباب قائمة ، ومن هذا المنطلق حاولت الرأسمالية الغربية والاشتراكية الشرقية حلّ المشكلة الاقتصادية فى العالم .

وجعلت العالم العربى يعيش أحلام اليقظة خاصة اشتراكية هيّقة ذلك الذى كانت له إبل سمان ، وأخرى عجاف ، فكان يعقل العجاف ، ويسرح فى الفلاة بالسمان فسئل عن السبب فيما يصنع فأجاب : أنا لا أكرم إلا ما أكرم اللّه منهن ؟!

ووضع الجبن أمام الثعلب الماكر ليقسمه بين القطين مناصفة بالعدل والميزان المقسط، فطفحت كفة الغنى للأغنياء ، وظل الفقراء يفترشون الثرى ، وانقلب أرباب الكراسى إلى رأسماليين كبار ، وانحصر الفقر على الطبقات التى كانت فقيرة .

أما الحل الإسلامى فهو لا يقتصر فى تحليله على الجانب المادى البحت ، بل ويركز أيضا على الناحية الروحية والأخلاقية.

ــ كقوله تعالى فى حديث قدسى : « يا عبدى أنفق أنفق عليك »(١) .

وكقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ ﴾ [الحديد : ٧] .

وقوله ﷺ : « . . . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء » ، «ولم يطففوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان » .

روى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : سمعت من عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه حديثا عن رسول اللّه ﷺ ، ما سمعته منه ، وكنت أكثرهم لزومًا لرسول اللّه ﷺ ، قال عمر : قال رسول اللّه ﷺ : « ما تلف مال فى بر ولا بحر إلا بحبْس الزّكاة »(٢) .

فقـه الدعـوة

١ ــ إننى على ثقة تامة أنه لو تمعّن المسلمون وتعمقوا فى عبارات هذا الحديث لكفاهم شر الانكسار ، والمذلة والصغار ، والتبعية والاستعمار .

ولوتفهمته البشرية وجربته مرة فى الميدان لكفاها شر الهواجس النفسية والاضطرابات الاجتماعية والمتاهات غير الأخلاقية .

ولجنبها شبح الانتحار المهول الذى يحصد العشرات يومياً فى العالم الغربى كله ، والذى تؤلف فيه المؤلفات وتقدم الإرشادات ــ فى الغرب ــ لممارسته بأقرب وأسرع الطرق ، والعجب العجاب فى سرعة نفاد طبعاتها ، ولكننى إذ أحمل الأمة الإسلامية على الخصوص ، والبشرية بمربيها ومفكريها ورجال الدين عندها ، والمتكفّلين بإصلاحها تلك العواقب المأساوية فإننى أثقّل بها بصفة أخص وأوكد كواهل الدعاة المسلمين ، والمرشدين والوعاظ . . . لأنهم عقل الأمة النابض وعين البشرية البصيرة لعلهم يتساموا عن الانتصارات الذاتية . . والحركية !

٢ ــ على الداعية أن يتخذ من الشباب الجانب الأوفى من رصيده فى العمل الإسلامى ؛ لأنه طاقة الأمة ، وأملها الكبير فى هذا الرعيل !

وعليه ألا يستنكف من مجالستهم ، ومخالطتهم فهذا سيّد الوجود عليه السلام يردف غلاما يافعا ويحادثه ، ولكننا ويا أسفاه نعاصر أقواما يعدون أنفسهم من الدعاة ثم يستنكفون مجالسة صغار السن ، والتجربة ، والعلم .

ويظل ينظر لمن هو دونه التلميذ ، الابن مهما بلغ علمه ، ويظلون يفرضون

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وهو حديث غريب .

وصايتهم على الشباب ، ويسفهون أحلامهم ويقللون من أعمالهم .

وعلى الواعظ ألا يتغافل عن أساليب التشويق وأدوات التنبيه : « يا غلام ! ألا أعلمك» .

تطبيق

١ ــ اليوم وفى العالم الإسلامى يواجه الشباب أعتى حملة مزدوجة مسعورة ، فبدل احتضانهم وتعهدهم وتوجيههم ؛ لأنهم فلذات الأكباد ، نعلن عليهم حربا خطيرة فى الداخل .

وفى المقابل تتلقفهم أجهزة الغرب المسمومة وتتكّفل بهم لتستخدمهم كطابور خامس ضدّ دينهم وأهاليهم وأوطانيهم ، فلا تسأل كم فتاة تحجّبت وتفقّهت ؟ بل كم عذراء اغتصبت فى حواضر عالمنا الإسلامى !

ولا تسأل : كم مدرسة إسلامية فتحت ؟ بل كم سجْنا ملئ عن آخره !

هكذا بدل أن ننتهج سنة القائد المربى ﷺ، رحنا نجّرب كل الطرق التربوية الغربية التى تردى أكثر مما تهدى ، وتتلف أكثر ممّا تثقّف ، فياحكام المسلمين، ويا وزراء التربية على الخصوص: إن الشباب هو الأمانة التى ستسألون عنها أمام أحكم الحاكمين!

٢ ــ لقد تخلينا عن شريعة اللّه ، وتثاقلنا عن نصرة دينه والذود عن المقدسات ، فتخلّى اللّه عنّا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩] ، فهذه هزائمنا ، وذى دماؤنا أرخص الدماء فى العالم اليوم ، وهذه كرامتنا لا يراعى لها أحد أقل اهتمام ، وهذه أراضينا عرضة للنهب والابتزاز ، فإنا إلى ربنا وإنا إليه راجعون .

٣ ــ لقد تعدّد المسؤولون فى معتقداتنا بَدَل أن نسأل الغنى الكريم ، فهرعنا إلى كل ذى جبة خضراء ، وإلى أصحاب القباب والأضرحة نسألها الولد والصحة ، والنجاح ، والهناء ، والشفاء وللّه درالقائل :

لا تســـألن بنى آدم حاجـــة وسل الذى أبوابه لا تحجب

اللّه يغضب إن تركت سؤالـه وبنى آدم حين يسـأل يغضب

مثلما استعان البعض ــ أيضا ــ بالتمائم ، والتولة ، والطلاسم دون الواحد القهار .

٤ ــ وهل تعرفنا على اللّه فى الرخاء حينما حبا اللّه هذه الأمة بكنز عظيم ومدّخر

ثمين ـ البترول ـ الذى أصبحت الدول العربية به تتحكم فى شريان العالم الاقتصادى فدرّ عليها ـ بفضل الله ـ وابلا من الخيرات والدولارات ، ولكن جنّدت هذه الخيرات لحروب الفتنة ، وقمع الحركات الإسلامية ممّا جرّ عليها أزمات اقتصادية حادة خطيرة كالتضخم الذى أضحت تعانى منه هذه الدول ، وكالديون التى أثقلت كاهلها ، وأخيرا لا آخرا : التآمر الغربى الصليبى الذى أدّى إلى انخفاض سعر البترول على الخصوص والمواد الأولية على العموم التى لا زالت تعد شريان حياة هذه الأمة .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٤ ، ٣٥] .

وقال تعالى فى ذيل قصة قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] .

الحديث العشرون

عن أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرىّ رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم :

« إن مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى إذا لم تستحْى فاصنع ما شئت»
رواه البخارى وأحمد وأبو داود وابن ماجه .

تخريج الحديث :

خرجه البخارى من رواية منصور بن المعتمر عن ربعى بن خراش عن أبى مسعود عن حذيفة عن النبىّ ﷺ ، فاختلف فى إسناده ، لكن أكثر الحفاظ حكموا بأن القول قول من قال عن أبى مسعود ، منهم البخارى وأبو زرعة الرازى والدارقطنى وغيرهم .

ويدل على صحة ذلك أنه قد روى من وجه آخر عن أبى مسعود من رواية مسروق عنه ، وخرجه الطبرانى من حديث أبى الطفيل عن النبىّ ﷺ أيضا .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ــ إن الإيمان برسالة محمد ﷺ وبما جاء به يقتضى تصديقه فى نبوته ورسالته، ومن أساسيات ما جاء فى هذه الرسالة الإيمان بالأنبياء والمرسلين السابقين جملة، وتفصيلا فى معرفة بعضهم، قال تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

ولا غرابة فى ذلك ؛ لأن وحدانية المرسل سبحانه ــ عز وجل ــ توحدهم ،

إن مما أدرك الناس آى ظفروا به وبقى مأثورا لديهم ينقله الخلف عن السلف .

تستحى . مضارع استحيا حذفت ياؤه الثانية للجازم ، وفى رواية : تستح ــ بكسر الحاء مضارع استحى .

فاصنع ما شئت : أى افعل ما أردته وشئته . والأمر للتهديد كقوله تعالى : ﴿ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ . بمعنى إذا انتزع منك الحياء انغمست فى القبائح دون مبالاة فتستحق عقاب اللّه تعالى حيث لم تبال بشرعه، ولم تخش عذابه ، ولم ترج حسابه ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا** ﴾

ووحدة الهدف الذى بعثوا من أجله يجمعهم ألا وهو الإسلام للّه تعالى .

فلم إذًا هذا التطاحن بين أتباع موسى وعيسى على حد زعمهم ؟ !

ولم هذا الحقد الكبير على أتباع محمد ــ صلوات الله عليهم وسلامه جميعا ــ ما دام المصدر واحدا ، وما دام الهدف واحدا ؟ !

ترى من هم المتزمتون المتعصبون المتحيزون : الذين يرفعون من مقام عيسى ابن مريم البتول إلى الألوهية ، وفى المقابل يحطون من قيمة سيّد المرسلين حتى إلى درك الملفقين الأدعياء ــ بلا خجل ؟ !

أم هم الذين لا يعترفون إلا بما جاء به موسى عليه السلام ــ بعد تحريف طبعا ــ ثم هم لا يلوون على شىء مما جاء به ابن مريم ــ عليهما السلام ؟ !

وها هو القرآن الكريم يكشف عن تصوراتهم الخاطئة ومواقف الحقد المتبادلة بينهم : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** ﴾ [البقرة : ١١٣] .

ولقد تم هذا التقاذف والسّباب بينهم أمام النبىّ ﷺ حيث قدم أهل نجران ــ من النصارى ــ على رسول الله ﷺ وأتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول اللّه ﷺ فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شىء وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شىء وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل اللّه الآية السابقة (١) .

أم أولئك الذين لا يجدون فى أنفسهم أقل حساسية فى أن يؤمنوا بجميع الأنبياء والمرسلين بل ويعتقدون أنها تخدش فى إيمانهم إن وجدوها .

وها هم الأنبياء أنفسهم تؤخذ عليهم المواثيق ، ويتعهدون بالإيمان بمن يعقبهم من الرسل وتأييدهم ونصرهم ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [آل عمران : ٨١] .

وعن جابر رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن

(١) قاله محمد بن إسحاق عن ابن عباس .

تكَذّبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حيًا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتّبعنى»[١] .

٢ ــ إن الحياء الحقيقى ليس انقباضا فى النفس يحجم صاحبه عن فعل الرذائل أمام المخلوقين فقط ؛ لأنه قد لا يجرؤ على المجاهرة بما يفعل أمامهم ، أو لأنه يخشى مراقبتهم له وملاحقاتهم الجزائية ، أو لأنه يحتاط من التشهير ، ولكن المستحى فعلا أولى له أن يستحى من الخالق ــ جلّ وعلا ــ لأنه هو وحده المطلع على الخفايا والسرائر، فلا تخفى عليه خافية ، ولا تحجب بصره الأبواب الموصدة ، ولا الستائر المسدلة ، ولا السفر إلى باريس ، ولندن ، وعليه أن يتيقن أن الله يراه حيث كان وكيف ما كان ، هذا إن لم يصل به إيمانه إلى رؤية الله فى أمره ونهيه ، وهى أسمى درجات الإيمان السامق [٢] .

والاستحياء من الله ليس كالاستحياء من البشر، ولا كما يفهمه البعض أو الكثير بل بيّنه ﷺ فى حديثه المروى عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « استحيوا من الله حق الحياء » قلنا : يا رسول الله ،إنا نستحى والحمد لله ، قال:« ليس ذاك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » [٣] .

الأصولية :

١ ــ يؤخذ من قوله ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى » أن شرع من قبلنا من الأمم شرع لنا نحن الأمة المحمدية ، وهذا ما ذهب إليه فريق من الفقهاء مع ملاحظة هذه الأمور الثلاثة :

(**أولها** : أن أحكام شرع من قبلنا لا تعرف من غير المصادر الإسلامية ، فلا عبرة بالنقل من غير هذه المصادر ؛ لأنه لا حجة فى النقل عند المسلمين إلا المصادر الإسلامية ذاتها ، وذلك باتفاق فقهاء المسلمين .

الأمر الثانى : أن ما يثبت بالدليل الإسلامى على أنه نسخ فإنه لا يؤخذ به ، وكذلك ما قام الدليل على أنه كان خاصا بالأقوام الذين شرع لهم ،فإنه لا يسرى فى الإسلام كتحريم بعض أجزاء من اللحوم على بنى إسرائيل وذلك بالاتفاق أيضا .

الأمر الثالث : أن ما ثبت بالنص الإسلامى أنه مقرّر فى الإسلام كما كان مقرّرا

---

(١) رواه الحافظ أبو يعلى .

(٢) انظر ذلك بالتفصيل فى شرح الحديث الثانى .

(٣) رواه الترمذى ، وأحمد ، والحاكم .

فى الأديان السماوية السابقة فهو ثابت بالنصّ الإسلامى لا بالحكاية عن السابقين ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

ومما يعزز ما ذهب إليه بعض المالكية ، وبعض الشافعية والحنابلة وبعض الحنفية أن ما جاءت به المصادر الإسلامية على أنه كان شرعا فى الشرائع السماوية السابقة ولم يوجد دليل على بقائه ولا على إنهائه من سياق النص نفسه : يكون شرعا لنا هذه النصوص التى تأمر المصطفى ﷺ ومن ورائه أمته بالاقتداء بالأنبياء السابقين ، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه ﴾ [الأنعام : ٩٠]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣])(١) .

٢ ــ كما أن عبارة « من كلام النبوّة الأولى » تدل على أن شريعتنا ليست هى أولى الشرائع ، ولم تخالفها أبدا فى المصدر ، فالمشرع للتوراة هو المشرع للإنجيل وهو الذى شرع الإسلام سبحانه وتعالى .

والذى أرسل بشريعة الإسلام لا يخالفه أى رسول من رسل الشرائع السابقة ، فلم يكن موسى عليه السلام ملكا مقربا ، ولا عيسى إلها ولا ابن إله .

والكل مؤتمن فى تبليغه عن اللّه ــ عز وجلّ ــ ولم يحاب اللّه سبحانه أحداً على أحد حين أخذ عليهم العهود والمواثيق: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب:٧].

وما كان عيسى أو موسى إلا بشرا ، فلم يعاب على الرسول ــ صلى اللّه عليهم جميعا ــ أكل الطعام والمشى فى الأسواق ؟ هل من العقل والعدل أن نطلب من البشر أن ينسلخ عن بشريته ؟ !﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٧]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨].

ولم يعاب عليه الفقر فلم يعيّر وحده به ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] ، بل تطاول على سيدنا موسى عليه السلام فرعون اللعين ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي

(١) أصول الفقه ، للإمام محمد أبو زهرة بتصرف ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ط : دار الفكر .

أفلا تبصرون . أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكادُ يبين . فلولا ألقي عليه أسورةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكةُ مقترنين ﴾ [الزخرف : ٥١ ــ ٥٣] .

وباختصار شديد، فإن محمدا ﷺ لم يكن بدعا من الرسل : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف: ٩] ،﴿ وما مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِه الرُّسُل ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، ثم إن الذى بعث به الرسل جميعا هو الإسلام مهما تعددت مظاهر العبادة واختلفت الأحكام الشرعية قال تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عندَ اللَّه الإسْلام ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال أيضا : ﴿ مِلَّةَ أبيكُمْ إبْرَاهِيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ من قَبْل ﴾ [الحج: ٧٨] ، وقال أيضا: ﴿ أفَغَيْرَ دينِ اللَّه يَبْغُون ولَهُ أسْلَمَ مَن في السَّمواتِ والأرْضِ طوْعًا وكَرها وإليْه يُرْجعُون. قُلْ آمنَّا باللَّه ومَا أُنزلَ علَيْنَا ومَا أُنزلَ علَىٰ إبْرَاهيمَ وإسْمَاعيلَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأسْبَاطِ ومَا أُوتيَ مُوسَىٰ وعيسَىٰ والنَّبيُّونَ من رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لهُ مُسْلمُون﴾ [آل عمران : ٨٣ ، ٨٤] .

٣ ــ والتشريع الإسلامى لا يخالف الفطرة السليمة أبدا ، بل يوافقها تماما حيث أقر كل ما قال به الحكماء والعقلاء من آراء فطرية سديدة ، ومواقف أخلاقية رشيدة قال تعالى : ﴿ فطْرَتَ اللَّه الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْديلَ لخَلْقِ اللَّه ذَلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ولَكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ [الروم : ٣٠] .

فإذا كانت الفطرة تستهجن الظلم بأنواعه، فالإسلام شدّد فى تحريمه حيث قال عليه الصلاة والسلام : « الظلم ظلمات يوم القيامة »(١) ، وعن أبى ذر الغفارى رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربّه ــ عز وجل ــ أنه قال : « يا عبادى إنّى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا. . . »(٢) .

وإذا كانت الفطرة السليمة تستقبح الكذب وتزدرى صاحبه، فإن الشريعة الإسلامية اعتبرته بوّابة يدلف منه صاحبه إلى الفجور ثم إلى النار وبئس القرار ، فعن عبد اللّه رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البرّ، والبرّ يهدى إلى الجنّة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند اللّه

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى .

(٢) رواه مسلم ، والترمذى ، وابن ماجه ، وسيأتى بتمامه.

صديقا ، وإيّاكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجُور يهدى إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند اللّه كذّابا » (١) .

ولو تركت تلك التيارات المنحرفة ، والأهواء الضّالة الإنسانَ على فطرته ولم تحرفه عن وجهته الذاتية الأصلية ؛ لآمن من فى الأرض جميعا بما جاء به رسول اللّه ﷺ، ولما كان فى هذه الحياة كفر وفسوق وعناد ، ولكنها إرادة اللّه ــ عز وجل .

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾» [الروم : ٣٠] .

الاجتماعية :

سلطان الحياء هو أكبر سلطة ذاتية موجهة حينما تفقد من أفراد الأمة، فمعناه : تدهور الحالة الاجتماعية حيث لا أمن على الأموال ولا على الأعراض ، وما نهاية كثير من الأمم وهلاك أفراد مجتمعاتها واندثار حضارتها إلا بسبب انتزاع الحياء من أبنائها ، والتاريخ على ما أقول شهيد قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء : ١٦] .

السياسية :

إننا نواجه ظلما وتعسّفا من قوم جفّت وجوههم من آخر قطرة من ماء الحياء ،إنهم الشرذمة التى احتكرت كل أساليب المكر والدهاء والخبث والخداع ــ اليهود ــ فلا ضير عندهم إذًا أن ننكر أو ننذر أو نندّد ، أو نبكى ونشتكى ونستعطف ونسترحم ، أو نهرع إلى الرأى العام العالمى ما داموا قد بدّلوا الحقائق وغيروا المعالم ولفقوا ، ودفعهم عدم حيائهم لا إلى تحريف تاريخ البشرية وتهويد الإرث الحضارى الإسلامى ــ فراحوا يصبونه فى قوالبهم صبّا ، ويرفعون من يريدون ، ويحطون من يبغضون ــ فحسب ، بل وحتى إلى الحذف والتبديل فى التوراة نفسها أفلا يكون تحريف تاريخ القدس وتهويد معالمها أهون عليهم من ذلك ؟ !

يا قوم : إنكم لن تجنوا من هذه النداءات والاستنجادات شيئا،ها هى أصواتكم قد بحت ، وأوراق ملفاتكم فى هيئة الأمم المتحدة ــ عليكم ــ قد تراكمت ، وآذاننا قد

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى وصححه ، واللفظ له .
(٢) رواه البخارى .

صخّت فماذا جنيتم بربكم ؟

هل حررتم شبرا ، أم حققتم حلما ؟!

وهل استرددتم كرامتكم ورفعتم هاماتكم ؟ ! أم أنكم لم تجدوا عزاء سوى فى الإذاعات، والمؤتمرات ؟ !

إنكم والله لن تحركوا ــ فيمن عدم الحياء ــ ساكنا ، ولن تحيوا ضمائر ميتة ، ولن تحرّكوا عواطف متجمدة ، ولن تستدروا شفقة قلوب متحجرة طلق الحياءُ أصحابها بالثلاث .

إن إسرائيل عملت بمفهوم الحديث وطبقت معناه « إذا لم تستح فاصنع ماشئت »، فنالها التهديد والوعيد .

لم تستح ، فادعت بتبجّح أنها أفضل العالمين ، وأنها شعب الله المحبب المختار ، وما دونها رعاع تستخدمهم لمصالحها وتسخرهم لراحتها .

ولم تستح ، فاغتصبت أرضا هى عنها غريبة ، وطردت أهلها ، وشردت سكانها الأصليّين.

ولم تستح ، فظلت تستحوذ على أجزاء كبيرة من الأراضى العربية مدّعية أنها تحصن حدودها وتحفظ أمنها .

فماذا فعلتم أنتم حينما استحييتم ؟ عفواً فى الحقيقة حينما تخاذلتم وتَناومتم ، إن المدفع لا يقاوم باللسان ، وإن المنجد اللغوى لا يسدّ مسد المنجد الحربى ، وإن الحديد لا يفل إلا بالحديد !

فقه الدعوة

١ ــ ليس من الحياء فى شىء أن يقرّ المسلم بالمنكر ويتغاضى عن أهله ويجالسهم مهما كانت صلته بهم ومهما كانت نوعياتهم .

٢ ــ البعض ممّن يسمون بالدعاة إلى الله فقدوا خلق الحياء من الله إطلاقا ، فراحوا يحلّلون ويحرمون ويزيّنون للحكام ما يشتهون ، بل ويبرّرون مواقفهم وتصريحاتهم وقراراتهم المحاربة لله ورسوله ؛ يبررونها بالتأويل والتحريف لكتاب الله.

فحينما آثر أحدهم الاستسلام لجلادى العصر الحديث ــ اليهود ــ والخضوع لهم وخيانة بيت المقدس ، حرم إبراهيم الخليل ، ومسرى محمد عليه السلام ، وإذلال الأمة الإسلامية، وتمكين الغرب الحاقدين من ناصيتها .

ماذا فعل علماء هذه الأمة وقادة فكرها وزبدة عصرها ! لقد عمدوا إلى كتاب اللّه دون خجل ليسربلوا قادتهم بقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال: ٦١] ، وعموا عن قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وعن قوله : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٥] .

والغريب فى الأمر أن هذه المتناقضات التى وسعها العالم الإسلامى اليوم يحاولون إلصاقها بالإسلام ؛ كإلغاء المصدر الثانى من مصادر الشريعة الإسلامية ــ السنة النبوية الشريفة ــ وكإلغاء التاريخ الهجرى ، وكمنع تعدد الزوجات ، وإقرار نظام التبنّى ، وتحديد النسل ، وتحليل ما يسمى بالفوائد الربوية ، وكجلد وتقطيع أيدى الفقراء دون الأمراء ، وإقرار الاستعانة بالمشرك على المسلم . . . وهلم جرّا .

وإننى لأعجب كل العجب من علماء ذاع صيتهم ، وتداولت أيدى القراء كتاباتهم وزخرت المكتبات الإسلامية بمؤلفاتهم ، وانتشرت أصواتهم مسجلة عبر أجهزة التسجيل، ثم لا يرعون أن يرسموا فى ذهنية المسلم صورة للإسلام الأمريكانى بأنه نظام إقطاعى، وكأنه شرع للبرجوازيين فحسب، وفى نفس الوقت يركزون على إلحاد النظام الشيوعى وضلاله (١) .

نعم إن النظام الشيوعى بعيد كل البعد فى منهجه ، وفلسفته ومنطلقاته عن النظام الاقتصادى الإسلامى كبعد النظام الرأسمالى أيضا عنه . . . ولكننا نريد دعاة الإسلام ، لا دعاة الكلام . . نريد دعاة تشبّعوا بالإسلام روحا ومنهجا لا دعاة أمريكا ، ولا دعاة القصور وحكام الفجور !

تطبيق

١ ــ يشيع بين الكثيرين أن الحياء هو الإحجام عن الكلام ولو كان الكلام لإظهار الحق وإبطال الباطل، أو للاستفسار عن شريعة اللّه، ولكنه مفهوم خاطئ بالمرّة حيث إن رسول اللّه ﷺ نفسه كان أشدّ حياء من البكر فى خدرها وما ترك النهى عن المنكر،

---

(١) ولا بأس أن أنقل فى هذا الصدد ما كتبه الأستاذ محمد قطب فى كتابه: (شبهات حول الإسلام) ص٢٢٢ حيث يقول : وإن قوما ليتزعجون على الإسلام، من انتشار الشيوعية. . فما الذى يزعجهم؟ إن الوضع لن يتغير بالنسبة إلى الإسلام ، فالعالم الذى تكتسحه الشيوعية اليوم هو العالم الصليبى ، الذى كان دائما يناصب الإسلام العداء ، روسيا ذاتها التى بدأت فيها الشيوعية هى التى كانت من قبل تؤلب الطوائف على الدولة المسلمة لتوقع فيها الفتن والاضطرابات ، فما الذى تغيّر ؟ كلا: لم يتغيّر شىء.

ولا أقر باطلا ، ولا سكت على خطأ ، وفى الصحيح عن عائشة قالت : رحم الله نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهنّ ، وأن يتفقهن فى الدين ، وروى البخارى عن أم سلمة أنها قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ، إن الله لا يستحى من الحق ، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت ؟ فقال: «نعم إذا رأت الماء » .

٢ ــ وتحت أستار عديدة انسلخت طوائف كثيرة من المجتمعات الإسلامية عن خلق الحياء من النساء ، والحكام ، والكتاب ، والصحفيين ! !